استخدام المقدس لتعبئة الجمهور اسهل من استخدام اليومي المبتذل:

ما الجديد في صدام الكاريكاتورات؟

محمد بنعزيز*

■ بعد فتوى الخميني باهدار دم سلمان رشدي صاحب رواية «آيات شيطانية» ورفض منع الحجاب في فرنسا العلمانية، ، تعود مسألة اسلامية لتحتل صدارة الأحداث عالميا، على الأرض وعلى صفحات الجرائد، اليكم تشبيكا لردود الأفعال:

رسوم هزلية نشرت في ايلول (سبتمبر) 2005 تثير احتجاجات دموية في شباط (فبراير) 2006،احتجاجات في لندن وهونغ كونغ، قال مواطنون مغاربة ان تأخر رد علمائنا يدفعنا الى انتظار مواقف من الأزهر وعلماء السعودية (القدس العربي 2006/2/2). الاسلاميون المغاربة يتهمون الحكومة والعلماء بالتهاون عن نصرة الرسول)ص(، الناطق الرسمي باسم الحكومة يرفض الرسوم المسيئة للرسول، حسابات الاحتجاج بين الاسلاميين والسلطة. اتهام وزارة الداخلية باستغلال أزمة الرسوم لفبركة وقفة احتجاجية لتصفية الحساب مع مجلة «لوجورنال» المزعجة... الصحافيون العرب الذين أعادوا نشر الكاريكاتورات شجعان (Le monde 2006/3/24).

تحذير الاسلاميين من استغلال حملة الدفاع عن الرسول بغرض الاستعراض أو تركيب جدول أعمال سياسي داخلي على الحملة. (الاتحاد 2006/2/27). انتقدت حركة التوحيد والاصلاح تغيير اسم ثانوية من صلاح الدين الأيوبي الى اسم النقابي الاتحادي عبد الرحمن شناف، وقالت جريدة «التجديد» 2006/2/24، ان هذا التغيير استهانة بصلاح الذي حرر مسرى محمد سيما وأن الرسول يتعرض لحملة هذه الأيام. تنبيه: لا تميز قوى الحركة الاسلامية بين الداخل والخارج، لأنها تشتغل في اطار الأمة وليس في اطار الدولة. وهذا التلاحم يزيد قوتها.

احراق سفارات مقاطعة منتوجات دعوات للحوار، دعوات للجهاد، سقوط قتلى... تقديس حرية التعبير. حفيد أحد ضحايا الهولوكوست في النمسا يدعو الى الغاء قانون متابعة منكري المحرقة لتكون لحجة حرية التعبير قيمة في مواجهة الاسلاميين (ليكونومست 2006/3/1) محاكمة صحافيين، تبادل التهم بين الاسلاميين والاستئصاليين، تقديس الدين، مظاهرات عنيفة، مجزرة أمام قنصلية ايطاليا في ليبيا، استقالة وزراء، وقفات مؤدبة، كاريكاتور للمسيح يقبل محمد، هل يجوز رسم النبي؟ الرسوم هي المسكوت عنه في الكتلة المعادية للاسلام. البحرين تهدد بوقف تزويد الدنمارك ب159 ألف برميل نفط يوميا ان لم تعتذر الملكة مارغريت الثانية، الفاتيكان يستنكر ما جرى في الدنمارك، سحب سفراء، تهديد بوجود قنابل، شيخ الأزهر يقول لسفير الدنمارك في مصر «النبي شخص ميت فلا تهينوه». المصريون يطالبون بعزل الشيخ لأنه قال ان الرسول «شخص ميت». كاتب اسرائيلي يؤكد أن الغليان في العالم الاسلامي تعبير عن فوضى وصراع داخلي وليس موجها ضد الغرب واسرائيل... سكرتير الحلف الأطلسي يدعم حكومة الدنمارك، حملات لمقاطعة السلع الدنماركية، قال مدير مساعد مؤسسة الثقافات الثلاث «سنبين للجميع أن بالامكان فتح جسور النقاش دون حمل السلاح» (الصباح 2006/4/6) خافيير سولانا يقول للحكومات العربية والاسلامية ان النيل من الدنمارك هو نيل من أوروبا كلها. عبد الإله بلقزيز يلوم الأوروبيين لأنهم لم يساعدوا الحكام العرب (الاتحاد 2006/2/27). رقم بضائع الدنمارك هو 57، صحف تنشر أن الله تعالى لعن وأوعد الذين يؤذون الرسول وأعد لهم عذابا مهينا. وقد ورد هذا في سورة الأحزاب الآية 57. الدنمارك تحصي الخسائر الاقتصادية، سفير الدانمارك في البرتغال يزور مقر حزب العدالة والتنمية في الرباط. مسلمون فرنسيون يتظاهرون دفاعا عن حرية التعبير، لمنع الاسلاميين من اعتبارها مجرد فزاعة. (تيل كيل 2006/3/11). أدت سنوات الرصاص الى افقار الحياة الثقافية والجامعية، لذا لم تعد أوروبا تعرف المغرب العربي بعد 1962. وهذا هو سبب فقر النقاش حول الكاريكاتورات P.Vermeren لوجورنال 2006/3/4 الاسلاميون يدعون لمقاطعة الغرب. تساءل كاتب يساري «ماذا لو قاطَعَنا الغربُ وأوقف تزويدنا بالغذاء والدواء والتكنولوجيا... سنعود الى عهد الديناصورات» (الاحداث 2006/2/28) لم يفكر أحد في هذا الاحتمال، وان حصل فالرد جاهز: صحف الجمهورية الاسلامية الايرانية تنظم مسابقة في تفنيد الهولوكوست، كل يعرف الجرح الغائر للآخر، لذا يضع أصبعه على نافطته ليوجعه. انه صدام الكاريكاتورات. The Clash of Caricatures.

ليس بامكان هذا التقرير أن يتسابق مع القنوات الفضائية ومن بعدها الصحف في رصد هذه الأخبار... لذا سأترك الأحداث الجارية لأفحص قاع القلة، وعليه فان هذا المقال لا يلتزم بالتسطيح الذي يتطلبه الاجماع.

قبل وبعد معركة ليبانتو

ما الجديد في الكاريكاتورات الدنماركية؟ صورت الرسول عنيفا ودمويا. هل هذا جديد؟ لنفحص الوقائع لدى مفكرين متناقضين:

يورد الأول قول المؤرخ غيبون في كتابه «انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها» «خلال عشر سنوات من حكم عمر (بن الخطاب)، أخضع العرب لطاعته 36 ألف مدينة وقلعة ودمروا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكافرين، وشيدوا 1400 جامع لممارسة ديانة محمد» ص102. وعليه فان الغزو الاسلامي الذي بدأ في القرن السابع أزاح مركز الثقافة الأوروبية بعيدا عن المتوسط باتجاه الشمال فبدأت الجرمانية تلعب دورها في التاريخ. ص98

«لم يصبح الاسلام رمزا للرعب والدمار، والشيطاني، وافواج البرابرة المقوتين، بصورة اعتباطية. فبالنسبة لأوروبا، كان الاسلام رجة مأساوية دائمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان «الخطر العثماني» متربصا بأوروبا ممثلا بالنسبة للحضارة المسيحية كلها تهديدا دائما. ومع مرور الزمن امتصت الحضارة الأوروبية هذا الخطر وأحداثه العظيمة، وخبراته الموروثة، وشخصياته، وفضائله، ورذائله وحولته شيئا منسوجا في لحمة الحياة الأوروبية» ص89. النتيجة: «ان سيف محمد، والقرآن، هما أكثر أعداء الحضارة، والحرية، والحقيقة الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا» ص168. وعليه «كان مفترضا (لدى المستشرقين) أيضا أن الحداثة بالنسبة للاسلام كانت اهانة أكثر منها تحديا» 264. وقد تم تثبيت هذه الخلاصة لأن الاسلام يُدرَس في معزل عن الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشعوب الاسلامية ص128. تقلص المجتمعات الممتدة من الدار البيضاء الى جاكارتا في مظهرها الديني لاستثارة العداء وتبرير الاحتلال. يفسر الكاتب «من أجل أن يفهم الاسلام فهما أفضل، ينبغي أن يقلص الى «الخيمة والقبيلة» 128.

هذا عن التاريخ، فكيف هو الانسان الشرقي؟ راكب جمال، ارهابي، شهواني شره، شكاك، ليس لديه أي تصور للسلام، كسول، يزدري الفكر، عاجز عن الانضباط يرفض التفسير العقلاني ويعيش في تنافس مدمر. العقل الشرقي ضعيف ملكة المنطق يكره الدقة وهو مثل شوارع المدن الشرقية يفتقد التناظر... هذه هي الصورة كما كتبت منذ مئات السنين، وقد اكتسى هذا التعميم الثقافي صفة التقرير العلمي ص 166. وما زالت «تطغى هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبي». ص.131 لم يرد هذا الكلام لدى باحث دنماركي أو صهيوني، انها أقوال واستشهادات ادوارد سعيد في كتاب الاستشراق. فهل أضاف أصحاب الكاريكاتور جديدا؟

لنبحث الآن لدى نقيض ادوارد سعيد، وسأعلن الاسم منذ البداية: صامويل هنتنغتون: «يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون ان الغرب ليس بينه وبين الاسلام أي مشكلة، وانما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الاسلاميين. أربعة عشر قرنا من التاريخ تقول عكس ذلك. العلاقات بين الاسلام والمسيحية سواء الأرثذوكسية أو الغربية كانت عاصفة غالبا». ص338.

كيف هي هذه القرون؟ يجيب هنتنغتون «كان محمد مقاتلا عنيفا وماهرا ولم يكن المسيح وبوذا كذلك» ص427. ويضيف «الاسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء حضارة الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل» ص 339. متى؟ هنتنغتون «كان الاسلام منذ القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام 1571 يهدد المسيحية الأوروبية تهديدا فعالا» LÇpante ص101 ولم ينته هذا الوضع حين هزم البابا Pie V العثمانيين في تلك المعركة البحرية، بل ان «الميل الاسلامي الى القتال والعنف من حقائق أواخر القرن العشرين التي لا يستطيع ان ينكرها المسلمون أو غير المسلمين» 420. الدليل حسب هنتنغتون «هو أن كل حدود انتشار الاسلام دموية» ص338.

هكذا استوى الماضي والحاضر، حاليا قربت حرب الخليج بين العلمانيين والقوميين والأصوليين، لأنهم اعتبروا صد صدام عن احتلال الكويت حربا على الاسلام. وقد استشهد الكاتب بمقاطع للمهدي المنجرة وفاطمة المرنيسي بديا كظلاميين ص 399. لم ينته المسلسل، فالمستقبل مهدد أيضا، يقول هنتنغتون «معدل الزيادة السكانية الاسلامية يهدد التوازن الاثني والديني في كل مكان يقع فيه». 422. وهذا التهديد ليس مسألة تاريخية نسبية، انه مبدأ مطلق: «بالنسبة للجماعات الأصولية الاسلامية: الجهاد هدف في حد ذاته، مهما كان الأمل ومهما كانت النتيجة» ص435.

وهنا سأتوقف عن عرض الادلة لاثبات البديهيات. هذا هو الارث وهذه هي صورة الاسلام والمسلمين في أوروبا، هذا واقع، يدينه سعيد ويبرره هنتنغتون، لكن التأويلات لا تغير شيئا في هذا الكليشيه القديم، ذاك التصور العنيف للمسلم معروف، وقد اتخذت السلطات الايطالية، في منتصف اذار (مارس) 2006 تعزيزات أمنية مشددة داخل وخارج كاتدرائية ايطالية فيها رسوم مسيئة للرسول. (الصباح 2006/3/21). الرسوم المسيئة قديمة اذن، فما الجديد لتندلع المظاهرات؟

1 ـ الجديد هو الثورة الاعلامية المتأخرة التي يعيشها العالم العربي والاسلامي: ان قوة متابعة القنوات الفضائية هي التي أججت المشاهدون أكثر من القراء.

عمليا، يتجنب العلمانيون الذين يسيطرون على وسائل الاعلام التابعة للدولة في العالم العربي ابراز المواقف التي قد تصب في صالح الحركة الاسلامية المتطرفة. لكن القنوات الفضائية ـ في تنافسها على جلب المشاهدين ـ جلبت الكتلة الصامتة الى الساحة، أدخلت الأمين ليشاركوا في النقاش السياسي. صارت جدتي تتحدث عن الدنمارك والصور و«سيدي محمد الحبيب» صارت القنوات الفضائية وسائل للتعبئة المحلية، لهذا ضعفت سيطرة الحكومات العربية الاسلامية في توجيه شعوبها بسبب التعبئة الخارجية. صارت قناة الجزيرة وهي تشغل 300 شخص، تخيف وزارات الاعلام التي توظف الآلاف. اللغة الدنماركية هامشية والجريدة التي نشرت الرسوم لا توزع في باكستان. اذن فالقنوات الفضائية هي التي صنعت حدث المظاهرات ضد الرسوم.

يقول هنتنغتون ان شرطي الصدام الحضاري هما التزامن والتقارب، ويوضح أن وسائل الاعلام ألغت الفواصل المكانية بين القبائل الحضارية، فأصبح الصراع ممكنا. ص80.

2 ـ الجديد هو استخدام الرسم الذي يخاطب العين. بلاغة الصورة أقوى من بلاغة الكلمات. الجديد هو أن الصورة الدموية للمسلم غدت معروفة لمآت الملايين من المسلمين الأمين والمتعلمين الذين لم يسمعوا بموقع الرسول والصحابة في الكوميديا الإلهية لدانتي (1265 ـ 1321)، وقد عاصر الكاتب فشل الحروب الصليبية. بفضل الجريدة الدنماركية، أصبح العامة يعرفون صورتنا الكاريكاتورية في الغرب. وبطبيعة الحال فتصورات الآخرين عنا تكدر حياتنا.

3 ـ الجديد هو تقوي الحركة الاسلامية وهيمنتها على الأجندة الاجتماعية والسياسية. مراكز الدراسات المختصة في هذا المجال تلمع. فاز الاخوان المسلمون في مصر وفلسطين، سيطرت الحركة الاسلامة الباكستانية على الشارع، حسن الترابي يسترجع مواقعه الاعلامية، أوروبا وأمريكا تحاوران الاسلاميين، الجزائر يفقدون مواقعهم لصالح بوتفليقة والجزائر تتأسلم من فوق. في المغرب، وبخ الاسلاميون الحكومة على صمتها فنطق وزير الاتصال.

4 ـ الجديد هو اكتشاف أن استخدام المقدس للتعبئة أسهل من استخدام اليومي المبتذل، فصور عمرها ألف عام في كنيسة أكثر تهييجا للأمة من رفع أسعار الوقود والسكر والزيت. حسب استفتاء على موقع جريدة التجديد على الأنترنت يوم 2006/1/28 شكل العراق وفلسطين أولوية بالنسبة الى 60 % من المصوتين. بينما يظهر استطلاع أمريكي في المغرب أن 2 % فقط من المغاربة معنيون بالعدالة الاجتماعية و3 % بالقانون والحريات العامة. (لوجورنال 2006/3/18).

هذا هو سبب عجز المعارضات الوطنية عن القيام بتعبئة محلية حقيقية يمكن أن تقود الى نهضة اجتماعية. الدرس: اذا أرادت أي حركة سياسية أو دعوية أن تنجح يجب أن تأخذ هذه الأرقام بعين الاعتبار.

هذا الخلل في الأولويات هو الذي يفسر الموقف العربي الاسلامي الرسمي بقبول الهجوم على الأرض ورفض الهجوم على المقدسات. العجيب أن الحكومات التي باركت الهجوم على الأرض في أفغانستان والعراق هي الأشد غضبا بعد الهجوم على المقدسات. قبلنا الهجوم الغربي على الأرض، لماذا نندهش للهجوم على المقدسات؟ هجوم قديم على أي حال.

على هذا الأساس، فان السبب الحقيقي للاحتجاجات لا يرتبط بالرسوم ذاتها، بل بعوامل راهنة، ان النخب تسترضي الدهماء. تجيش المشاعر محليا وتخاطب الغرب باسم حوار وتحالف الحضارات في الصالونات. لهذا كشف هنتنغتون الوجه الآخر لفاطمة المرنيسي. ولهذا أطلق يوسف القرضاوي موقعا للدفاع عن الرسول، على خلفية الرسوم الدنماركية، هل يعقل أن القرضاوي لم يقرأ دانتي أو سعيد أو هنتنغتون أو أيا من كتب المستشرقين المتعصبين؟ ... قرأ، لكنه لم يفكر في الدفاع عن الرسول الا حين تحرك الشارع. يستفزني التسطيح المغرض.

الصدام: فكرة خاطئة تشحذها الوقائع

طيب ما العمل الآن؟ هل سننتظر المحطة الموالية من صدام الكاريكاتورات؟ هل ستندلع مظاهرات في أوروبا ويسقط قتلى اذا نشرت الجمهورية الاسلامية كاريكاتوراتها حول الهولوكست؟

جاءنا الجواب من اسبانيا: تحالف الحضارات. أنا معجب بأزولاي لأني أحب الصورية، وأقدر زاباتيرو لأنه خلص المغرب من أزنار، ولكن لا أرى أية بوادر لتحالف غير تحالف المخابرات، يعرف زاباتيرو أن عددا من المدن الاسبانية تحتفي سنة 2006 بمفخرة حروب طرد المسلمين من الاندلس، هدد المسلمون بواتييه جنوب فرنسا وحاصروا فيينا، أليس هذا سبب كون أول استفتاءين أجريا لرفض الدستور وقعا في البلدين، وهما الأشد رفضا لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي؟

ان ادعاء عدم وجود صراع ثم الانتقال للحديث عن تحالف الحضارات، مجرد نوايا طيبة تخذلها الوقائع... رفض الصراع والمواقف التي نتج عنها شيء، وانكار وجوده شيء آخر، يوجد من يمسك العصى من الوسط، يقوم بتنسيب المسألة، يقول ان هناك صراع مصالح يلبس لبوس أديان ومعتقدات ومبادئ، سيتساءل جاحد: وما المصلحة في نشر الرسوم المسيئة؟ سيرد شخص متفائل «هذا دليل على تدهور الغرب أخلاقيا»، بينما سيقول شخص قلق «الاسلام يتوجه للعالمين، وكلمة كاثوليكية تعني العالمية، فأيهما على حق؟». أليس الجواب على هذا السؤال هو الذي أملى على حركة طالبان تفجير تماثيل بوذا في قندهار عام 2000. أليس هذا مسا بمعتقدات الآخرين؟ تظاهر البوذيون في الصين والهند، لكن لم يتظاهر أحد في الرباط. لا أحد يقدس معتقدات الآخرين.

ان الصدام فكرة خاطئة تشحذها الوقائع، وجمع مئة شخص متميز ـ ينكرون صدام الحضارات ـ في فندق باشبيلية لن ينهي المسألة، هؤلاء يخاطبون النخب، الذين قتلوا في مظاهرات أفغانستان وباكستان وليبيا لم ينصتوا لصوت النخب، بائع الساندوتش الملتحي أكثر تأثيرا على الحي الذي أسكنه من نعوم شومسكي وشيخ الأزهر ووزير الأوقاف. موقع جهادي على الانترنت وأقراص تباع في محطات الحافلات أكثر تأثيرا من آلاف الكتب العقلانية في المكتبات، يبدو أن الثورة التكنولوجية المستعارة في العالم العربي الاسلامي قد نجحت في نشر الأفكار التقليدية أكثر من مساهمتها في التحديث. وهكذا وفرت الأرضية والوسائل اللازمة للاسلاميين المتشددين لفرض خطابهم، مما فرض على المعتدلين المزايدة، كي لا يسحب البساط من تحت أقدامهم، ولهذا السبب يحتج حتى اولئك الذين يوجد كتابا سعيد وهنتنغتون في مكتباتهم.

أتفهم أن يحتج الأميون، أما الذين قرأوا تراث الاستشراق فكيف يتفاجأون ويحتجون على تصوير كل مسلم ارهابيا؟ لماذا لم يحرقوا كتب سعيد وهنتنغتون؟ أتوقع أن يفعلوا ذلك، ان اشتد صراع الكاريكاتورات بين الدنمارك وايران وان كان مفيدا في التعبئة والمزايدة.

* كاتب من المغرب

عن الانشطار الطائفي بالعراق

يحيى اليحياوي*

لم يكن للمرء حقيقة أن يلحظ أن ثمة «مشكلا طائفيا حادا» بالعراق الا في أعقاب دخول الجيوش الأنجلوأمريكية له واستصدار عناصر سيادته وازاحة شتى أشكال الممانعة (المادية كما الرمزية سواء بسواء) التي كانت تطبع نظام الرئيس صدام حسين وثوت خلف كل مظاهر التحامل عليه لدرجة أضحى أمر اسقاطه «شأنا استراتيجيا» بامتياز.

والواقع أنه لو تم التسليم بوجود «اشكال طائفي» من نوع ما بعراق ما قبل الاحتلال، فانه لم يكن بالحدة ولا بالقوة (ولا بالراهنية حتى) التي شهدها عقب غزوة آذار (مارس) ونيسان (أبريل) من العام 2003 على الأقل في ظل أكثر من عقد ونصف حوصر خلالها البلد برا وجوا وبحرا وتم الشروع في الاجهاز على وحدته من خلال ثلاث مناطق حذر جغرافية استشعرنا عبرها من حينه البعد الطائفي الذي يحكم الاستراتيجية الأنجلوأمريكية في التعامل مع «عراق المستقبل».

واذا كان من التجاوز حقا الالتفاف على التنوع الطائفي الذي طبع ولا يزال يطبع التركيبة الاجتماعية للكيان العراقي منذ نشأته، فانه من غير المبالغ فيه أيضا الاعتراف بأن اذكاء نعرة الطائفية وتأجيج مداها الى ما يشبه، منذ مدة، الفلتان الطائفي انما ثوى خلفها الاحتلال بجعله عنصر المحاصصة ركيزة ترتيباته الحاضرة والمستقبلية لثلاثية «الطائفة والسلطة والثروة» بالعراق:

ـ فتشكيل «مجلس الحكم» الذي رتب له الحاكم الأمريكي للعراق بول بريمر (شهورا فقط بعد سقوط البلاد تحت الاحتلال) تحكمت في توليفته الروافد الطائفية (والمذهبية والعرقية أيضا) لدرجة بدا معها الأمر كما لو أن القاسم/المفارق المشترك بين العراقيين في تقاسم السلطة انما هو القاسم الطائفي بداية وبمحصلة المطاف...

لم يعمد الاحتلال فقط الى جعل الطائفية المظهر الأساس للمشهد العراقي العام، بل عمل على شرعنتها لتغدو المعطى الناظم لكل مجريات ما بعد سقوط بغداد.

ـ والانتخابات، كما توزيع المناصب كما التعيينات بالادارات والسفارات وما سواها، حكمتها الخلفية الطائفية واعتمد فيها مبدأ المحاصصة الطائفية كما لو أن لا مقياس آخر بالامكان على أساسه افراز نخب سياسية تدير حال العراق تحت الاحتلال أو تفتح له في السبل مستقبلا للتداول السياسي على السلطة كما وعدت بذلك «ديموقراطية الاحتلال».

ـ وتكوين الأحزاب (كما انشاء المنابر الاعلامية والفضائيات) كما تأسيس الميليشيات (وأعضاء «الجيش العراقي» أيضا) انما تم بالاحتكام الى «مبدأ» الطائفية الذي بات مصدر الهوية والانتماء والعنصر المحدد «للتباري على السلطة» وبلوغ «سدة الحكم».

لم يقتصر الأمر عند حد اعتماد المحاصصة الطائفية كنمط في تحديد آليات «اللعبة السياسية الجديدة»، بل اتخذت كمرتكز أساس باستحضاره أفرغت العديد من الوزارات والجامعات من كوادرها (لتعوض بمقربين من الطائفة) واعتمدت سياسات في التهجير والتطهير والتصفيات ثوت خلفها ميليشيات لم تعرف منذ احتلال العراق من ولاء الا ولاء الطائفة والعشيرة أو الحزب المعبر عنهما شكلا وبالمضمون، بل قل ان السقف الطائفي (والمشترك العقائدي) هو الذي أضحى الخيط الناظم «للعملية السياسية» التي ارتضت لنفسها الاشتغال من بين ظهراني الاحتلال وتحت حمايته وعلى هدي من توجيهاته.

وعلى هذا الأساس، فان عنصر الهوية (المرتكز على العروبة والاسلام والانتماء للوطن الواحد) قد تحول ليتخذ له من الركيزة الطائفية المرجعية والفلسفة... والهوية أيضا.

ليس من المبالغة في شيء القول بأننا، بالعراق المحتل، انما بازاء شرخ في التركيبة الاجتماعية يبرز مشهدها العام كما لو أن الكل بات مع الكل ضد الكل... دونما فارز جوهري اللهم الا فارز الطائفة أو العشيرة أو القبيلة (أو المذهب الديني) بصورة بدائية قاتمة أو متخذة لها تلوينات سياسية في اطار الحزب أو الجمعية أو الهيئة أو التكتل العقائدي وهكذا... لكنها بالأساس عنصر تناحر وتمنع يتقاتل بموجبها أبناء الوطن على خلفية من الانتماء البدائي للطائفة أو للعشيرة أو للقبيلة أو لغيرها.

انها (الطائفية أقصد) غدت العزوة بامتياز، بالاتكاء عليها تتحدد موازين القوة وبالركون اليها يؤشر على قوة هذا الطرف أو ذاك. وهو أمر لا يعبر فقط عن ضيق أفق سياسيي «العراق الجدد»، بل وأيضا عن عدم نضجهم السياسي واحتكامهم الى أشكال في الصراع هي بدائية بكل المقاييس.

واذا كانت الاستراتيجية الأنجلوأمريكية قائمة، في توجهاتها الكبرى على الأقل، على تقسيم العراق الى دويلات ثلاث أو أكثر (وهي التي مهدت بالأمس لذلك من خلال مناطق الحذر وتمهد له اليوم عبر تجذير الطائفية لدرجة اعتمدت في توزيع أطياف الهاتف المحمول) فانها تتخذ من الخاصية الطائفية الغاية والوسيلة وتدفع بجهة انمائها وتطعيمها لتصبح، بمرور الزمن، أمرا مستساغا، مقبولا ومبررا فضلا عن كل هذا وذاك.

لا تعلن الاستراتيجية اياها ذات الغاية (تماما كالمتشبعين بالطائفية من أبناء العراق)، بل تدفع بها بالمضمر وتشجع أدواتها (الفردية كما الجماعية) حتى تغدو بقوة الأمر الواقع «حالة طبيعية» يقبل بها العراقيون (في ظل الفيديرالية غالبا) كما لو أنها المخرج من حالة «الاحتقان الطائفي» التي لازمت العراق لعقود طويلة... أو هكذا يقال.

ليس من الموضوعية في شيء أن ينكر المرء التركيبة الطائفية التي تميز المجتمع العراقي (فهي لازمة تاريخية قائمة)، لكنها كانت ولعهود طويلة مضت أيضا، مصدر تنوع وعنصر تمازج وأداة تواصل بين أبناء العراق. بالتالي، فهي لم تغد عنصر فرقة وممانعة (ومدخلا للتقسيم) الا في ظل الاحتلال... لكنها لن تفتأ بزوال هذا الأخير أن تعود الى صورتها الأولى... صورة عنصر التمازج المرتكز على مقومات الحضارة العربية/الاسلامية بتلويناتها المختلفة.

واذا سلم المرء بأن ظاهرة التناحر الطائفي أضحت قائمة (ومحيلة حتما على الاقتتال الأهلي ان تم الدفع بها الى أقصى مدى ممكن)، فان المطلوب هو العمل على تجاوز الحالة اياها باعادة استنبات جسور التواصل بين التقسيم الطائفي الحاصل وبين المشروع الوطني الذي تدفع به المقاومة وتتخذ منه شعارا للتحرير.

ليس من حق كائن من يكن أن يزايد على العراق تنوعه الطائفي (أو العرقي أو المذهبي أو ما سواها)، فهو (التنوع أعني) كان ولا يزال مصدر ثرائه وغناه. وبالقدر ذاته، فليس من حق أحد (اللهم الا حماة الاحتلال ودعاة الفرقة والاقتتال) أن يخلق منه نعرة للاحتراب والاقتتال والتقسيم...

واذا كانت ظروف التقسيم قائمة اليوم ويدفع بجهتها بقوة، فاننا نتساءل عن الكيفية التي من خلالها سيقتسمون فيما بينهم حضارة العراق وجغرافية دجلة والفرات...المخترقة لكل بساتين العراق.

* باحث وأكاديمي من المغرب

ما الذي يريده المغتربون السوريون من سورية؟

محي الدين قصار*

■ قبل ما يزيد عن سنة ونصف أتاني شخص يسألني المساعدة للعمل على تغيير الحكم في سورية عن طريق التدخل العسكري الأمريكي. فسألته: «هل هذا هو ما يريده المغتربون السوريون في شمال أمريكا؟» أجابني بأنه «يمثل هذه الجالية» بدعوى رئاسته لجمعية «مؤلفة من ثلاثة أشخاص» وقد استقبلته أحدى الفضائيات عدة مرات. رفضت قبول هذه الدعوة ورفضت أن اعتبره ممثلا بشكل من الأشكال للجالية السورية في شمال أمريكا. فمنذ بُعيد هجمات 11 ايلول (سبتمبر) وأنا أحاول أن أقنع فعاليات من الجالية بضرورة تشكيل هيكل تنظيمي يدافع عن مواقف الجالية ويكون صوتا لمصالحها. وكان السؤال الذي أسعى للاجابة عليه هو «ما الذي تريده الجالية؟» وقد كان لنا ما نريد عندما أسسنا الكونغرس السوري الأمريكي كمؤسسة لا تسعى لفرض مواقف على الجالية السورية في شمال أمريكا، بل تسعى لقراءة ارادات هذه الجالية وتمثيلها.

واليوم بعد ما يزيد على سنة على الاجتماع الأول للكونغرس السوري الأمريكي وبعد النجاح الشعبي الذي حققه المؤتمر السنوي الأول الذي عقد يوم العشرين من أيار (مايو) 2006، يبقى السؤال مطروحا بالحاح كبير «ما الذي تريده الجالية من سورية؟». وهذا السؤال يحمل الكثير من الأهمية في ضوء محاولات التفريق بين الداخل والخارج المتكررة واتهام المعارضين السوريين بالاستقواء بالخارج. فانني أريد أن أضع أولا مبدأين يُجمع عليهما أفراد الجالية السورية في أمريكا ولم أجد رأيا واحدا يخالفهما. الأول يرى بأن الوضع الراهن للتركيبة السياسية السورية وطريقة الحكم غير مقبولين وغير قابلين للاستمرار. أما المبدأ الثاني فيقول بأنه لا يمكن أن يقبل أي احتلال عسكري أمريكي لسورية كحل للمسألة الديمقراطية في سورية.

تقدر الجالية السورية في شمال أمريكا بما يزيد عن أربعمئة ألف نسمة حسب معهد جيمس زغبي المشهور، ويعتبر أبناء الجالية من فئات المجتمع الأمريكي الأكثر ثراء والأكثر تحصيلا علميا، فيتجاوز معدل دخل الفرد السوري في أمريكا المعدل العام للأمريكيين بما ينيف عن 15 % وقد ذكر أن نسبة حاملي الدكتوراه من أبناء الجالية تصل الى 31 بالألف على حين تصل هذه النسبة الى 9 بالألف بالنسبة للأمريكيين غير السوريين. والرأي السائد بأن هناك ما يزيد عن خمسة آلاف طبيب سوري في الولايات المتحدة وحدها، وأصحاب الطرافة يتفكهون بأنه في كل قرية أمريكية هناك مكدونالد ومكتب بريد وطبيب سوري.

أما سياسيا فتوزيع الجالية لا يختلف عن توزيع الشعب السوري في أي مكان من العالم. فهناك فئتان واضحتان، الأولى «غير مسيسة» لا يهمها من تركيبة الحكم سوى بعض المصالح الاقتصادية وأحيانا الوجاهية. فتقوم باستقبال سفير هنا أو وزير هناك لاشباع الناحية الوجاهية في صفوف الجالية؛ أو تأمين بعض المشاريع الاقتصادية مثل مشفى هنا أو مشروع سكني هناك. ومقابل الفارق الكبير بين امكانات الحكومة وموظفيها ماليا وقدرات أفراد هذه الفئة تبدو نشاطات هذه الفئة كبيرة بعيني المسؤولين السوريين، ولكن في الحقيقة تعدادها قليل وامتداداتها الشعبية مبتورة بسبب طبيعة هذه النشاطات الطبقية، والانفصام بين أفرادها والجالية بشكل عام تعكسه اجتماعات هذه الفئة والتي كثيرا ما يترددها طبقة مهنية أو اقتصادية واحدة. وينضم تحت لواء هذه الفئة بعض الأشخاص الذين يدعون بعلاقاتهم «المباشرة» مع «القصر الجمهوري» أو لهم معرفة شخصية بفلان من المسؤولين أو غيره من القيادة السورية.

الفئة الثانية وهي الفئة الأكثر ملاحظة ويجمعها جميعا رأي واحد سائد بأن النظام في سورية نظام غير قابل للاستمرار. ورغم عموم هذه القناعة فان هذ الفئة تتوزع في مواقفها سياسيا على عدة مجموعات بحسب درجة نشاطها السياسي. ويمكن تقسيم هذا النشاط الى مجموعتين. المجموعة الأولى تشمل كل الناشطين سياسيا، فهي مجموعة المعارضين علنا للنظام في سورية. وهي مجموعة ناشطة سياسيا وان اختلفت درجة نشاطها من فرد لآخر، وقد زادت نشاطات هذه المجموعة بعد بوادر الانفتاح الذي وعد به الدكتور بشار. وقد اعتقد الكثير من أبناء الجالية أنه بامكانها أن تساهم بدعم تيارات الاصلاح من داخل النظام. وكان الأمل كبيرا من أبناء الجالية بأن يتمكن الدكتور الأسد والفريق «الاصلاحي» في السلطة من ادارة دفة التحول الديمقراطي خلال السنوات الخمس الماضيات. ولكن احباط هذه الفئة كان كبيرا عندما اكتشفت أن دعوة الاصلاح لا أساس لها وأنها كانت لاكتساب الوقت. وقد دفعت تصرفات السلطة السورية من قضية التحقيق في مقتل الرئيس رفيق الحريري هذا الاحباط لأقصاه، فعوضا عن أن تتبنى السلطة التحقيق وتكون الأولى لحل ألغازه، وعوضا عن أن تضع خطوات حقيقية لتصحيح الأخطاء التي ارتكبت في لبنان والتي تكلم عنها الدكتور الأسد في خطابه الذي يفسر انسحاب القوات السورية من لبنان، ترى هذه الفئة من الجالية أن السلطات السورية تصرفت على الصعيد الدولي كالمتهم، واتبعت سياسات فوضوية تهدف الى خلط الأوراق وعدم التمييز بين «قتلة» الحريري والشعب السوري، ورأت أن سياسة الدولة هي تحميل كل الشعب السوري تبعات نتائج التحقيق عوضا عن حصرها بمن يثبت عليه الجرم. كما ترى هذه المجموعة أن السياسة السورية تحاول تكريس الخلط في العلاقات بين الزعامات السياسية للبلدين والعلاقات التاريخية بين الشعبين السوري واللبناني، وقد أتت أنباء الاعتقالات منذ مطلع العام والتي تكثفت بشكل ملحوظ خلال الشهر المنصرم لتضع المسمار الأخير بنعش فكرة صلاحية السلطة السورية للاصلاح لدى الجالية السورية في شمال أمريكا بشكل خاص ولدى السوريين جميعا بشكل عام.

ومن جهة أخرى رغم عداء هذه الفئة للحكم في سورية، بامكاننا أن نرى أن هذه المعارضة الخارجية مارست حسا وطنيا جيدا، واستطاعت أن تحقق أنجازا لم تتمكن لا وزارة الخارجية السورية ولا السفارة في واشنطن من تحقيقه وهو رفع مشروع احتلال سورية عن الطاولة، رغم قناعتي أن المقاومة العراقية الباسلة هي السبب الرئيس الذي منع الدبابات الأمريكية من السير نحو دمشق. ولكن علينا أن لا ننسى الدور السياسي الذي لعبه المعارضون من الجالية في واشنطن. فبعد أن سيطر الشخص المطبل للمشروع العسكري الأمريكي على الأضواء في واشنطن، مستفردا بالساحة في غياب صوت الجالية السورية، تدخلت قيادات من المعارضة السورية، واضطر بعدها للدخول معها في تحالفات حزبية واستطاعت أن تعزل الصوت الذي ينادي باحتلال سورية، وقد استشاط ريتشارد بيرل ـ مهندس احتلال العراق ـ غضبا عندما أدرك أن خطته لاعادة سيناريو العراق لم توفق، فاتهم المعارضة السورية بالضعف وانها غير ديمقراطية. واضطر شريكه السوري للانسحاب من «هذه» المعارضة. والجالية السورية في شمال أمريكا لاحظت التغير الكبير في الخطاب السياسي للمعارضين في أمريكا حتى في أوروبا، وتعتبر أن هذا الاقصاء للمنادين بالعمل العسكري ضد القطر في سبيل تحول ديمقراطي عمل ينسجم مع وجهات نظر الجالية، كما أنها تقدر جهود المعارضين الذين ساهموا في تحجيم المشروع العسكري الأمريكي.

أما المجموعة الثانية فهي مجموعة «غير ناشطة سياسيا» وهي تشمل عامة الناس وأغلبهم من المترددين على القطر خلال اجازاتهم الصيفية. يتمنون الخير للبلد ويأملون أ